

أدوات التشكيل الشعري في قصيدة أبابيل

للشاعر محمد البياسي

د. علاء الدين محمد الأسطى¹

أولاً: عرض موجز:

لما كان الشعر ضرباً من النسيج وجنباً من التصوير، فإنه يحتاج لأدوات عدة يستخدمها الشاعر ليتم لوحته الشعرية، لذلك قيل: إن الشعر رسم ناطق، وفي هذا يقول نزار قباني⁽²⁾:

كُلُّ الدُّرُوبِ أَمَامَنَا مَسْدُودَةٌ وَخَلَاصُنَا فِي الرَّسْمِ بِالْكَلِمَاتِ

الرسم بالكلمات يحتاج معجماً لغوياً وآخر شعرياً وثالث فنياً؛ ليتم للشاعر رسم اللوحة الشعرية وتلوينها بالألوان التي تناسبها. ومن هنا فإن أدوات التشكيل متعددة ومختلفة، لا يمتلكها إلا من أوتي جوامع فن الشعر، ولعل قصيدة أبابيل هي إحدى القصائد التي تشكلت بأدوات فنية متعددة، جعلتها حرة بالدرس والتحليل.

ثانياً: الشاعر والقصيدة:

1- محمد البياسي من مواليد دمشق للعام ستة وستين وتسعمئة وألف للميلاد (1966م)، من أسرة محافظة، تلقى تعليمه الديني كعادة أهل دمشق، فتدرج من الكتاتيب إلى التعليم الدراسي، وتحصل على إجازة الليسانس في اللغة العربية من جامعة دمشق، وهو الآن مقيم في دولة الإمارات العربية، ورئيس دار الرابطة للنشر والتوزيع. ومؤسس المجلة الثقافية لرابطة شعراء العرب.

بدأت رحلته مع الشعر منذ طفولته، فقد كان أبوه أديباً ذواقاً للشعر، محباً للعربية وآدابها، كان يلقي ابنه محمداً قصائد الفحول، فنشأ الشاعر محباً للشعر حفيظاً له، حتى إنه قال: لقد مر عليّ زمن كنت أحفظ فيه أكثر من مئة ألف بيت، ويقول أيضاً: إنه تخرج من مدرسة المتنبي والمعري وأبي

1 - محاضر في الدراسات الأدبية بقسم اللغة العربية بكلية التربية جنزور جامعة طرابلس

2- ديوان الرسم بالكلمات، ص 6.

أدوات التشكيل الشعري في قصيدة أباييل للشاعر محمد البياسي . د. علاء الدين محمد الأسطى

نواس، وما زال الشعر ديدنه حتى إنه قال: إن الشعر هو الذي علمني النحو والصرف واللغة⁽¹⁾.

للبياسي مجموعتان شعريتان مطبوعتان، الأولى تحت اسم (يا شام)، والثانية تحت اسم (حب ممنوع)، فيهما يكتب البياسي القصيدة العمودية، بطريقة حديثة، شكلاً ومضموناً، فهو يكتب البيت الشعري بطريقة السطر، لا بطريقة الشطرين، يقف مع انتهاء المعنى لبدأ في السطر التالي، ومن حيث المضمون فهو يلجأ للرمز كثيراً، لكن دون أن يكتنفه الغموض، ويعبر عن موضوعات حديثة معاصرة دون إنكار للأصيل القديم، ويستدعي الشخصيات والتاريخ والأحداث دون إغراق.

رغبته في التجديد ظاهرة جلية، لمجرد إلقاء نظرة على شعره، يكتبه على نمط وصورة حدائثة، لكنه ملتزم بأوزان الخليل، متعصب لها إذا حدثك عنها. وهو يسمي الديوان مجموعة شعرية، ويضع عناوين لقصائده، لا تخلو من الإيحاء، ولا يفوته أن يضع عناوين لدواوينه أيضاً.

2- قصيدة (أباييل) هي إحدى قصائد الشاعر التي جمع فيها بين الأصالة والحداثة، عبر فيها عن معاناة الأمة ومآسيها التي تعاني منها في هذا العصر، وهي موجودة في ديوانه: (يا شام)، وهي من بحر البسيط، من قافية اللام المرفقة بألف الإطلاق، وهذا نصها⁽²⁾:

مِنْ بَابِ عَمْرٍو، إِلَى صَبْرًا وَشَاتِيلاً	يَمْتَدُّ قَابِيلاً، فِي الشَّرِيَانِ قَابِيلاً
جِرَاحُ قَلْبِي كَمَوْجِ النَّجْرِ دَائِبَةٌ	وَاللَّيْلُ زَاوَدٌ عَنِ دَرْبِي الْأَسَاطِيلِ
يُخْفِي مُسَيِّمَةً، مَا كَانَ يَعْرِفُهُ	وَيُسْمِعُ النَّاسَ عَنكَ الْقَالَ وَالْقِيَالَ
مَا عُدْتُ أَعْبَأُ يَا لَيْلَى بِمَا رَعَمُوا	كَمْ كُنْتُ أَسْمَعُ يَا لَيْلَى الْأَبَاطِيلِ
صُلِبْتَ رَعْمًا عَلَى الْأَيَّامِ عَارِيَةً	وَمَثَّلُوا بِكَ بَعْدَ الصَّلْبِ تَمَثِيلًا
لَكِنَّ قَبْرَكَ مَقْرُوءٌ وَمُنْصَرِفٌ	يُحَيِّرُ النَّاسَ تَفْسِيرًا وَتَأْوِيلًا
قُومِي ارْفَعِي رَايَةَ الْمَاضِيَيْنِ عَالِيَةً	وَرَبِّلِي الْيَوْمَ سِفْرَ السَّيْفِ تَرْتِيلًا

1- مقابلة مع الشاعر، الجمعة 19 - 12 - 2014م، عمان، الأردن.

2 - يا شام، ص 22 - ص 25.

فَمَا إِذَا جَفَّ نَهْرُ النَّارِ سَالَ دَمٌ
هَذَا بِلَالٍ ... هَذَا صَوْتُ وَمِذْنَةُ
هَذَا الَّذِينَ وَلَوْ مَاتَتْ جُسُومُهُمْ
مَا مَسَّ بِالْفِيلِ مَا قَدَسَتْ أَبْرَهَةَ
مَا زَالَ مَا كَانَ مِنْ نَقْشٍ عَلَى حَجَرٍ
تَعَبْتُ أَسْأَلُ عَنْ وَجْهِ بِنْدِي أَمَلٍ
وليس تنفع حال العشق أسئلة

وَلَا إِذَا بَلَّلَ الدَّمْعُ المَنَادِيلاً
فَكَيْفَ نُشْرِكُ بِاللهِ التَّمَاثِيلَا؟
كَانُوا إِذَا ادَّهَمَّتِ الأَرْضُ القَنَادِيلاً
إِلَّا وَلاَقَى بِهِ الطُّيْرَ الأَبَابِيلاً
مِمَّا نَحْتَنَّا وَمَا بَدَلْتُ تَبْدِيلاً
وَشَيْخُ ذَاكِرَتِي يَمْخُو النَّقَاصِيلاً
إن لم يكن بعضها ضما وتقبيلاً

ثالثاً: أدوات التشكيل: استطاع البياسي أن يطوع أدوات عديدة، شكّل من خلالها رؤاه في قصيدة أبابيل، ولعل أهم الأدوات التي استخدم فيها الشاعر مهاراته التشكيلية: المعجم، والسياق، والصوت، والصورة.

1- تشكيل معجم القصيدة: في القصيدة معجمان اعتمد عليهما

الشاعر، المعجم اللغوي، والمعجم الشعري.

أ- وصف المعجم اللغوي: المراد هنا بالمعجم اللغوي هو كل المفردات التي استخدمها الشاعر دون استثناء، كلمة كلمة، دون النظر إلى سياقها التي جاءت فيه، وبالرجوع إلى القصيدة يلاحظ دون عناء أن ألفاظ القصيدة، مفرداتها وكلماتها جميعاً جاءت سهلة بسيطة خالية من التعقيد المعنوي واللفظي، فليس ثمة كلمة واحدة تحتاج لمعجم أو قاموس للبحث عن معناها، وللقارئ الرجوع للقصيدة مرة تلو المرة، فلن يجد فيها كلمة تستحق عناء بحث لمعرفة معناها.

وفي اختبار للمعجم اللغوي، تم عرض القصيدة على طلاب السنة الرابعة بقسم اللغة العربية، على أن يأتوا بكلمات صعبة المعنى، فاختاروا هاتين الكلمتين: (مُنْصَرِفٌ، ادَّهَمَّتِ)، وعندما طُلبَ منهم النظر إلى الكلمتين في السياق، وقفوا على المعنى دون جهد⁽¹⁾؛ لذلك أمكن القول هنا:

1 - طلاب السنة الرابعة بقسم اللغة العربية، بكلية الآداب والعلوم قصر خيار جامعة المرقب للعام الجامعي 2015 - 2016م في محاضرة النقد الحديث.

أدوات التشكيل الشعري في قصيدة أبايل للشاعر محمد البياسي . د. علاء الدين محمد الأسطى

إن معجم القصيدة خالٍ من التعقيد والغرابة، وتلك مهارة لا يجيدها إلا الشعراء الحقيقيون؛ إذ إنه من الصعوبة بمكان أن يبدع الشاعر نصاً بلغة سهلة تكاد تكون لغةً للعامة، وهذه هي البلاغة على رأي عبد الله ابن المقفع إذ يقول: " البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظنَّ أنه يُحسِنُ مثلها " (1)، فهو يريد أن يقول: إن البلاغة هي السهل الممتنع، وهو ما تتسم به لغة هذه القصيدة.

لكن ثمة مقياس آخر للمعجم اللغوي، وهو فصاحة الألفاظ بين السلاسة والجزالة، بمعنى آخر، النظر إلى اللفظة والمفردة من حيث سهولة النطق بها من عدمه، وهذا يتطلب العودة لقراءة الكلمات كلمة كلمة؛ للوصول للنتيجة التالية:

إن سهولة الألفاظ معجمياً كان نتيجة واضحة؛ لأن كلمات القصيدة متداولة بين الناس؛ مما يجعلها أيضاً تتسم بسهولة النطق وسلامة المخارج؛ وإلا لكان الناس قد هجروها، ورجبوا عنها، ومع ذلك فيمكن الوقوف هنا على كلمتين اتسمتا بالقوة، وهما (أعبأ، أسمع)، وربما احتاجت الأولى لجهد عضلي؛ ليتسنى نطقها وإظهار حروفها، فهي مكونة من أربعة حروف، يتميز ثلاثة منها بالقوة وهما: (الهمزة مكررة، والعين)، وقد جاورت العين الهمزة الأولى مباشرة، وهما من نفس المخرج، وحال بينها وبين الهمزة الأخيرة الباء وهو حرف إطباق أيضاً.

(أعبأ)، تكرارها مرة تلو مرة يوقف القارئ على الجهد الذي تحتاجه، وانحسار الهواء في الفم حتى الانتهاء من نطقها، وهذا يحتاج لجهد، غير أن سكون العين، يجعلها مع الهمزة الأولى كالحرف الواحد، وكأنك تنطق العين ساكنة.

وأما كلمة : (أسمع)، فهي أقل قوة وشدة من الأولى، مع أنها اشتركت معها في الهمزة والعين، وفي الميم مقابل الباء التي تنصف بنفس صفاتها. لكنَّ تَوَسُّطَ صوت السين والوَقْفَةَ الخفيفةً عليه من خلال السكون،

خَفَّف من صعوبة الانتقال إلى الميم والعين، خاصة وأن الميم جاءت مفتوحة، والفتحة هي أخف الحركات.

ومن هنا كان المعجم اللغوي، -لفظا ومعنى مفهوما ومنطوقا -معجما سلسا فصيحا، لا يجد القارئ عناء في نطقه أو فهمه.

ب- وصف المعجم الشعري: ويراد به الكلمات الدالة التي اعتمد عليها النص الشعري، ويمكن تسميته بالحقول الدلالي، أو الحقول المعجمي: " وهو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع تحت لفظ عام يجمعها... وهدف التحليل للحقول الدلالية هو جمع كل الكلمات التي تخص حقلا معينا، والكشف عن صلاتها الواحد بالآخر، وصلاتها بالمصطلح العام"⁽¹⁾. والقارئ لقصيدة أبابيل يلفت انتباهه للمرة الأولى اعتماد الشاعر على حقول دلالي معجمي يتكرر بمفردات متعددة، ومع العودة لقراءة القصيدة مرات عدة، تتجلى بعض الحقول التي هي أقل وضوحا، ويمكن هنا تسجيل حقول المعجم الشعري للقصيدة حسب قوتها من حيث الوضوح، تحت الحقول الآتية:

1- الحقول التاريخي: ويتمثل في ذكر الأحداث والشخصيات التاريخية، سواء كانت دينية أم سياسية أم اجتماعية، وهو من الحقول التي يمكن ملاحظتها دون عناء، وذلك لكثرة الشخصيات والأحداث التي اعتمد عليها الشاعر للتعبير عن رؤاه الشعرية، ومنها:

- أ- الديني:** ومفرداته هي: (قابيل، مسيلمة، الأباطيلا، تفسير، تأويلا، ترتيلا، بلال، مئذنة، شرك، الله، التماثيلا، قدست، القناديلا).
- ب- العسكري:** ومفرداته: (قابيل، الأساطيلا، تمثيلا، راية، السيف، الثأر، الفيل، أبرهة، الأبابيلا).
- ج- الاجتماعي:** ومفرداته: (الناس، القال، والقيلا، ليلي، الناس، الماضين، شيخ).

2- حقل الموت: ومفرداته: (قابيلا، جراح، صلبت، عارية، مثلوا، الصلب، تمثيلا، قبرك، دم، ماتت).

ولكل الشخصيات والصفات السابقة دلالات رمزية، فالشاعر يرى أن قابيل مازال يعيش بيننا، وكذلك مسيلمة، وأبرهة، في إشارة لوجود الظالم والكاذب والشري، لكن مع وجود هؤلاء فثمة فينا بلال، وطير أبيبيل، إشارة لوجود العادل والصادق والخير، ولا بد للحق من صولته. وستأتي في التشكيل بالرمز محاولة فك بعض الرموز من خلال السياق.

3- حقل الطبيعة: ومفرداته: (موج، البحر، الليل، دربي، نهر، الأرض، الطير، حجر).

4- حقل الإنسان: ومفرداته: (الشريان، قلبي، يسمع، الدمع، صوت، جسومهم، وجه، ذاكرتي، حال، أسئلة).

6- الحقل العاطفي: (راود، المناديل، أمل، العشق، ضما، تقبيل).

7- اللون: (الشريان، قابيلا، جراح، قلبي، موج، البحر، الليل، ليلي، عارية، الصلب، تمثيلا، قبرك، راية، نهر، دم، الدمع، المناديل، بلال، ادهمت، القناديل، نقش، حجر، نحتنا).

وللوقوف على دلالة هذه الحقول، يمكن التمثيل بحقل اللون على سبيل المثال الذي اعتمد على الألفاظ الإيحائية، إذ لم يرد في القصيدة لون باسمه، واللون الغالب على القصيدة هو اللون الأحمر الذي تدل عليه تسع كلمات هي: (الشريان، قابيلا، الدم، جراح، قلبي، عارية، الجراح، الصلب و التمثيل = الجراح والدم، القناديل)، وغلبة اللون الأحمر مناسبة لموضوع القصيدة التي يعنى بتضحيات أبناء الأمة (الأببيل) بدمائهم في سبيل رفع الظلم والمعاناة.

ثم يأتي في المرتبة الثانية اللون الأسود الذي تدل عليه ست كلمات هي: (الليل، ليلي، قبرك، راية، بلال، ادهمت)، وهو مناسب للتعبير عن مأساة الأمة.

ويأتي بعد ذلك اللون الأزرق الذي تدل عليه ثلاث كلمات هي :
(موج، البحر، نهر)، ويعادله اللون المخلوط الذي تدل عليه الكلمات:
(نقش، حجر، نحتنا)، ودلالتهما (الأزرق، والمخلوط)، تتمثل في محاولة
الشاعر أن يبعث الأمل رغم المأساة، خاصة وأنه استعمل اللون الأبيض في
كلمتين هما: (الدمع، المناديل)، فالدمع يفيد الألم والمأساة، والمناديل تفيد
الأمل والمواساة.

وبهذا يكون الشاعر قد شكّل لوحة شعرية متنوعة الألوان، تناسب
موضوع القصيدة ورؤياه التي غلب عليها اللون الأحمر؛ لغلبة القتل والدمار،
ويليه اللون الأسود الذي يناسب واقع الأمة عموماً - والشام خصوصاً -، ثم
لا ينسى أن يخضب لوحته ببعض الأمل فيستعمل اللون الأزرق فالمخلوط
فالأبيض.

2- تشكيل السياق: اعتمد البياسي في سياق تصويره لمأساة الأمة
على الرمز والإيحاء، فالرمز: " وسيلة تجديد الرؤيا، والتعبير عنها بواسطة
الصور الناتجة عن الرمز نفسه"⁽¹⁾.

ولا يكاد يخلو بيت في القصيدة من رمز أو أكثر. وإن كان الإفراط
في الرمز يؤدي إلى الغموض، وهو ما يعاني منه شعر الكثيرين، فإن البياسي
لم يعتمد على الرمز الذاتي الشخصي الذي يكلف القارئ جهداً كبيراً للوصول
إلى معناه، وفي الغالب لن يصل، لكن سياقات رموزه تساعد المتأمل على
فك غموضها (شفرتها)، فهو منذ المطلع يهدي القارئ مفتاح الرموز حيث
يقول⁽²⁾:

مِنْ بَابِ عَمْرٍو إِلَى صَبْرًا وَشَاتِيلاً يَمْتَدُّ قَابِيلُ فِي الشَّرِيَانِ قَابِيلاً
فما يجري في حي باب عمرو بسوريا، هو نفسه ما جرى قبل ثلاثين
عاماً في صبرا وشاتيلا بلبنان، وقابيل الأمس لا يختلف كثيراً عن قابيل اليوم،
بل إن قابيل الأمس ما زال ممتداً في شرايين بني آدم يجري منهم مجرى الدم،

1- الصورة الفنية، ص 76.

2- يا شام، ص 22.

أدوات التشكيل الشعري في قصيدة أبيبيل للشاعر محمد البياسي . د. علاء الدين محمد الأسطى

وسواء أكان القاتل السفاح يهوديا أم مسلما؟، فهو سيئة من سيئات قابيل، وقابيل الثانية هي الدم، وقابيل الأولى تحتل أن تكون قابيل بن آدم عليه السلام ، وتحتل أن تكون قابيل اليوم، (شارون، أو بشار)، أو أي طاغية جبار، وأما قابيل الثانية، فتحتل أن تكون قابيل اليوم (شارون، أو بشار)، وتحتل أن تكون إشارة ورمزا إلى الدم، الذي يتحمل قابيل الأول وزرَّ سفكه.

ومن ثم ينطلق الشاعر وتتعدد رموزه من خلال الشخصيات، فيذكر السفاحين على اختلاف طرقهم في الظلم، يبدأ بقابيل، ثم يذكر (مسيلمة) كذاب اليمامة، إشارة إلى طغاة الأمة المدعين زورا حفظها وحبها وحمائتها، ثم يذكر (التماثيلا)، إشارة إلى طغاة الأمة الذين تألّوها علوا على شعوبهم وبلدانهم، ثم يذكر (الفيل)، إشارة إلى أدوات القمع والحرب والخراب الرهيبة التي يستخدمها أولئك الجبابرة ضد شعوبهم، ثم يذكر (أبرهة)، إشارة إلى القادة المتعجرفين الذين يحرقون ولا يكثرثون.

فالشاعر هنا يجمع بين الطغاة على اختلاف صفاتهم، فمنهم الغادر بأبناء جلدته (قابيل)، والسياسي الكذاب على أمته (مسيلمة)، والحاكم الفرد الإله المتسلط على رعيته (التماثيل)، والقائد الميداني المتعجرف بسطوته (أبرهة)، والترسانة الرهيبة القاتلة (الفيل).

وفي مقابل هؤلاء، فإن الشاعر يشيد بكل الأحرار الذين يقفون في وجوه الطغاة، فيجعل من نفسه العاشق الوفي لبلاده (ليلي)، غير مكترث لتزّهات مسيلمة، فيقول:

مَا عُدْتُ أَعْبَأُ يَا لَيْلَى بِمَا زَعَمُوا كَمْ كُنْتُ أَسْمَعُ يَا لَيْلَى الْأَبَاطِيْلَا

ثم يذكر (بلالا)، في إشارة إلى صوت الحق الذي لا يمجد تلك الطواغيت (التماثيلا)، ويشيد بالذين قضوا نحبهم شهداء، إذ يقول⁽¹⁾:

هُنَا الذِّينَ وَلَوْ مَاتَتْ جُسُومُهُمْ كَانُوا إِذَا أَدْهَمَّتِ الْأَرْضُ الْقَنَادِيْلَا

ف(القناديل) هم الشهداء ولا ريب، تموت جسومهم وتبقى أرواحهم
وذكراهم وأفعالهم نبراسا للمدلجين في دروب التحرر والخلاص من براثن
الظلم.

ويذكر (الطير الأبايلا) في إشارة للذين ما زالوا يجالدون الطغاة،
ومن خلال هذا التوظيف يتوعد الطغاة بمصير أبرهة.

ولا ينسى الشاعر الضحايا الذين سقطوا عبر التاريخ، ويسقطون في
الحاضر، فيختار رمزا لهم هو (ليلي)، رمز الحب والعفاف والطهر والنقاء،
فمن تكون ليلي الأبايل؟.

من الممكن أن تكون الأمة، حين يخاطبها بالقول⁽¹⁾:

فُومِي اَرْفَعِي رَأْيَةَ الْمَاضِيْنَ عَالِيَةً ... وَرَبِّلِي الْيَوْمَ سِفْرَ السَّيْفِ تَرْتِيلاً

من الممكن أن تكون الشام، حين ينتقل من باب عمرو إلى صبرا
وشاتيلا، ومن الممكن أن تكون سوريا، وما تعانیه من اليوم من دمار
استحضر كل دمار التاريخ من صبرا وشاتيلا مرورا بجيش أبرهة انتهاء بفعلة
قابيل.

هكذا استعمل البياسي الرمز ليشكل من خلاله تعبيراً عن أحاسيسه؛
فهو يدرك جيداً أن الرمز يعبر عن دلالات شعورية ولا شعورية، قد لا يوجد
لها معادل لفظي يفي بغرض الإفصاح عنها، وفي هذا دلالة على المخزون
الثقافي الذي يتميز به الشاعر وإدراكه الحسي، وقوة خياله؛ ليشير بشيء
حسي إلى آخر باطني.

3- تشكيل الموسيقى: تتشكل في أبايل البياسي عدة أنواع من

الموسيقى، أهمها موسيقى الإطار، وموسيقى الحشو، وموسيقى التراكيب،
وموسيقى المقاطع، ويمكن الوقوف على هذا التشكيل كالاتي:

أ- **موسيقى الإطار:** " ويقصد بها الجور والقوافي"⁽²⁾، فالقصيدة من

بحر البسيط، بقافية اللام المرفقة بألف الإطلاق، وبحر البسيط يستقيم فيما

1- يا شام، مصدر سابق، ص 24.

2- الأسلوبية، ص 58.

أدوات التشكيل الشعري في قصيدة أبابيل للشاعر محمد البياسي . د. علاء الدين محمد الأسطى

يكون فيه لون من عنف أو لين⁽¹⁾، وهو بهذا يناسب موضوع القصيدة التي تعبر عن عنف الحرب والدمار في الحاضر والماضي، وتشرح لين مأساة الأمة وأحوال الضحايا، وبذلك كان الشاعر موفقا في اختيار بحر البسيط في هذه القصيدة.

وأما القافية، فهي المقطع الصوتي الذي يكون في آخر أبيات القصيدة⁽²⁾، وللقافية تعريفات، منها: تعريف الخليل بن أحمد، الذي اختاره ابن رشيق (456هـ) في العمدة، وهو: " القافية من آخر حرف في البيت، إلى أول ساكن يليه من قبله، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن، والقافية - على هذا المذهب، وهو الصحيح - تكون مرة بعض كلمة، ومرة كلمة، ومرة كلمتين"⁽³⁾. وقوافي قصيدة أبابيل جاءت من بعض كلمة في قوله: (الأساطيلا، الأباطيلا، المناديلا، التماثيلا، الأبابيلا، التفاصيل)، فالقوافي فيها هي: (ساطيلا، باطيلا، ناديلا، ماثيلا، بابيلا، فاصيلا)، وأما القافية من كلمة واحدة فجاءت في قوله: (قابيلا، تمثيلا، تأويلا، ترتيلا، تبديلا، تقبيلا)، وجاءت القافية من كلمتين مرة واحدة في قوله: (والقيلا).

وليس المهم هنا الوقوف على مثل هذا التفصيل لتعريف القافية، ولا عرض أنواعها، بقدر أهمية البحث في قيمة رويها، من حيث الدلالة والرنين؛ لأن حرف الروي " هو مرتكز الإيقاع في القافية، وأهم حروفها، وهو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة، ويتكرر في كل بيت، وإليه تنسب القصيدة"⁽⁴⁾. وروي قصيدة أبابيل هو اللام، فالقصيدة إذن لامية.

وبالنظر في رنين الروي ودلالته تجدر الإشارة إلى أن حركته - وهي آخر حركة في كل بيت - هي الفتحة، والفتحة أخف الحركات وأكثر وضوحا

1- ينظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج 1، ص 392، ص 453.

2- ينظر علم العروض والقافية، ص 134.

3 العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج 1، ص 128.

4- العروض والقافية بين التراث والتجديد، ص 286.

من الضمة والكسرة⁽¹⁾، أضيف إلى ذلك أنها مرفقة بألف الإطلاق، وفي الإطلاق صياح؛ لأنها ألف ممدودة طويلة⁽²⁾، وهذا مناسب لموضوع القصيدة الذي يصور معاناة الضحايا، وصراخهم وسط الدمار والخراب الذي تسببه الحرب التي يقودها طغاة عصرنا من أحفاد قابيل ومسيلمة وأبرهة. هذا الإطلاق يسمى في اصطلاح العروضيين بالوصل، " وهو حرف المد واللين الذي يلي الروي المطلق، وفائدته إطالة الحركة التي ينشأ عنها حرف اللين"⁽³⁾.

ب- موسيقى الحشو: ويراد بها الإيقاع الموسيقي المتمثل في تركيب الأصوات من خلال الموسيقى الداخلية كالجناس والطباق والمقابلة⁽⁴⁾، من شأنها جميعاً أن تثري النص بالتنعيم والرنين، وفي قصيدة البياسي ألوان شتى من موسيقى الحشو، منها التضاد في البيت الثالث بين كلمتي: (يخفي، يعرفه)، وفي البيت السابع بين كلمتي: (الماضين، اليوم)، وفي البيت الثامن بين كلمتي: (جف، سال)، ومنها الترادف في البيت الثامن بين كلمتي: (سال، بلل)، إلى غير ذلك من موسيقى الحشو الكثيرة في القصيدة، والأفضل هنا ألا يتم عرضها عرضاً تقليدياً كهذا العرض، بل الأحرى بها أن تعرض عرضاً تتضح من خلاله القيمة الموسيقية لها، وذلك من خلال الوقوف عليها ضمن موسيقى التراكيب.

ج- موسيقى التراكيب: ويراد بها التزام الشاعر بنفس التركيب الذي يؤدي إلى ترجيع الأصوات وتكرارها⁽⁵⁾، ويتمثل في قصيدة أبابيل في اعتماد

1 - ينظر: الأصوات اللغوية، ص 29، ص 76، ص 85.

2 - ينظر: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج1، ص 70.

3- العروض والقافية بين التراث والتجديد، ص 291.

4- ينظر: الأسلوبية، ص 59.

5- ينظر: المرجع نفسه، ص 59، ص 60.

أدوات التشكيل الشعري في قصيدة أبيبيل للشاعر محمد البياسي . د. علاء الدين محمد الأسطى

البياسي على موسيقى التوشيح⁽¹⁾. أو الإرصا⁽²⁾، وهي أن يتوقع القارئ كلمة القافية، أو أن تفصح كلمة القافية عن نفسها من خلال سياق البيت.

وقد شكل البياسي هذا الأسلوب بين النحو والبديع، فقد اعتمد على تأكيد الفعل بالمصدر في ثلاثة أبيات هي:

صُلِّبَتْ زَعْمًا عَلَى الْأَيَّامِ عَارِيَةً وَمَثَّلُوا بِكَ بَعْدَ الصَّلْبِ تَمْثِيلًا
قُومِي ارْفَعِي رَايَةَ الْمَاضِينَ عَالِيَةً وَرَتَّلِي الْيَوْمَ سَفَرَ السَّيْفِ تَرْتِيلًا
مَا زَالَ مَا كَانَ مِنْ نَفْسٍ عَلَى حَجَرٍ مِمَّا نَحْتَتَا وَمَا بَدَّلْتُ تَبْدِيلًا

واعتمد على الجناس في قوله:

من باب عمرو إلى صبرا وشاتيلًا ... يمتد قابيل في الشريان قابيلًا
واعتمد على الطباق في قوله:

يُخْفِي مُسَيْلَمَةً مَا كَانَ يَعْرِفُهُ وَيُسْمِعُ النَّاسَ عَنْكَ الْقَالَ وَالْقِيَالَ
لَكِنَّ قَبْرَكَ مَقْرُوءٌ وَمُنْصَرِفٌ ... يُحَيِّرُ النَّاسَ تَفْسِيرًا وَتَأْوِيلًا
هُنَا بِلَالٌ.. هُنَا صَوْتُ وَمِنْذَنَةٌ ... فَكَيْفَ نُشْرِكُ بِاللَّهِ التَّمَاثِيلَ؟
وَلَيْسَ تَنْفَعُ حَالَ الْعِشْقِ أَسْئَلَةٌ ... إِنَّ لَمْ يَكُنْ بَعْضُهَا صَمًّا وَتَفْهِيمًا
...

واعتمد على التوشيح، والإرصا⁽²⁾ في قوله:

مَا مَسَّ بِالْفَيْلِ مَا قَدَّسَتْ أَبْرَهَةَ إِلَّا وَلاَقَى بِهِ الطَّيْرَ الْأَبَابِيلًا
مَا عُدْتُ أَعْبَأُ يَا لَيْلَى بِمَا زَعَمُوا كَمْ كُنْتُ أَسْمَعُ يَا لَيْلَى الْأَبَابِيلًا

1- التوشيح عند أبي هلال العسكري: " هو أن يكون مبتدأ الكلام ينبئ عن مقطعه، وأوله

يخبر عن آخره، وصدده يشهد بعجزه"، كتاب الصناعتين، ص 382.

2- الإرصا⁽²⁾ عند ضياء الدين بن الأثير هو: " أن يبني الشاعر البيت من الشعر على

قافية قد أرسدها له، أي أعدها في نفسه، فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتي به

في قافيته، وذلك من محمود الصنعة؛ فإن خير الكلام ما دل بعضه على بعض...".

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2، ص 329.

ومن هنا فلم يبق إلا بيتان اثنان يحتاجان لجهد أكثر من الأبيات السابقات، لكن الوصول لكلمة القافية فيهما لا يصعبان على مثقف أو شاعر أو متأمل، وهما قوله:

فَمَا إِذَا جَفَّ نَهْرُ النَّارِ سَالَ دَمٌ وَلَا إِذَا بَلَّلَ الدَّمْعُ الْمَنَادِيلاً
تَعَبْتُ أَسْأَلُ عَنْ وَجْهِ بِنِي أَمَلٍ وَشَيْخٌ ذَاكَرْتِي يَمْخُو التَّفَاصِيلاً

ومثل هذه التراكيب الموسيقية التي اعتمد الشاعر البياسي، جعلت كلمة القافية تأتي طائفة مختارة، وفي تجربة لمدى توفيق الشاعر في ذلك، تم وضع القصيدة موضع الاختبار في الامتحان النهائي لطلاب السنة الرابعة، وفيه تم حجب الكلمات الأخيرة من الأبيات: (الثالث، والخامس، والسابع، والحادي عشر، والثاني عشر)، وقد أجاب الطلاب وعددهم يزيد عن خمسة وثمانين طالبا وطالبة، إجابات صحيحة تجاوزت نسبة 95%، حيث إن التوفيق حالفهم ليس للبتان بمرادفات لقوافي القصيدة، بل للكلمات نفسها التي اختارها الشاعر في قصيدته.

د- **موسيقى المقاطع:** والمقطع الصوتي هو الذي تبني عليه أوزان الشعر في بعض الأحيان، وبه يعرف نسيج الكلمة، وهو نوعان: مقطع متحرك مفتوح ينتهي بصوت لين قصير أو طويل، ومقطع ساكن مغلق ينتهي بصوت ساكن، وكلا النوعين يزدادان طولاً في بعض الأحيان⁽¹⁾، فقول البياسي:

مِنْ بَابِ عَمْرٍو إِلَى صَبْرًا وَشَاتِيلاً يَمْتَدُّ قَابِيْلُ فِي الشَّرِيَانِ قَابِيلاً

يتركب من مقاطع صوتية يكون بيانها كالآتي:

1- المقاطع المتحركة المفتوحة القصيرة تكررت فقط خمس مرات، وهي: (دُ)، في كلمة يمتد، (ب) في كلمة باب، (إ) في كلمة إلى، حرف العطف (و)، (ل) في كلمة قابيل، (ن) في كلمة الشريان.

1 - ينظر: الأصوات اللغوية، ص 146 - ص 150.

2- المقاطع المتحركة المفتوحة الطويلة تكررت إحدى عشرة مرة وهي:

(با، لى، را، شا، تى، لا، قا، بى، يا، بى، لا).

3- المقاطع الساكنة المغلقة القصيرة تكررت ثمان مرات، وهي:

(من، عم، رو، صب، يم، تد، فشد، شز)

4- المقاطع الساكنة المغلقة الطويلة، تكررت مقطعين هما: (د، ش).

ومعلوم أن انسجام الموسيقى في الكلام وغيره يتطلب طول بعض المقاطع، وقصر بعضها، ومن المهم هنا التنبيه على أن توزيع المقاطع لا يأتيه الشاعر عن قصد، وإنما يدلّه على توزيعها ذوقه الفني، وملكته الشعرية، ومحفوظه الشعري.

4- تشكيل الصورة:

ليس المراد هنا الوقوف على الصور البلاغية - التقليدية - من تشبيه واستعارة ومجاز، وإنما الوقوف على مستوى المرئيات التي رسمها الشاعر وشكلها أمام أعين القراء وفي أذهانهم، معتمدا على السياق، وتشكيل المشهد من خلال كلمات يختارها بعناية، دون أن يتجاهل صبغها بالألوان التي تحتاج، ومن ذلك قوله:

صَلِبَتْ رَعْمًا عَلَى الْأَيَّامِ عَارِيَةً وَمَثَّلُوا بِكَ بَعْدَ الصَّلْبِ تَمَثِيلًا

ومعروف أن صورة الصلب هي أشد أنواع القتل والتكيل، لا يقدم عليه القاتل لعامة ضحاياه، وإنما يخص به أشد أعدائه، وها هي (ليلى) البياسي التي هي (الشام)، عارية مصلوبة، على مرور الأيام، لا منقذ لها، بل إن أعداءها لم يكتفوا بصلبها، فتمادوا إلى التمثيل بجثتها.

هنا يتصور القارئ امرأة اسمها (ليلى)، وهي مصلوبة عارية، تنكؤها الجراح، وتخصبها الدماء، ثم يتناول البعض للتمثيل بجثتها، ولكل قارئ مساحة في ذهنه يرسم فيها طريقة التمثيل التي ترك الشاعر تفصيلها؛ لتتوزع في أذهان القراء كل حسب ما يتراءى له، وهنا تكمن رسالة هذا المشهد الذي رسمه الشاعر؛ ليرسل من خلاله رسالة ملؤها الألم والمعاناة والتضحيات، دون أن يستخدم الشاعر أداة من الأدوات البلاغية المعروفة من تشبيه أو استعارة،

فقط هو أشار من خلال السياق إلى بلاده بليلى ثم صور من خلال السياق أيضا - تلك المرأة الطاهرة ليلي مصلوبة يمثل الأعداء بها.

الخاتمة

- يخلص البحث للتأكيد على أن الشعر هم رسم ناطق، فمن خلال الكلمات وحسن تركيبها يجد القارئ نفسه أمام لوحة فنية لا يمكن أن توصف إلا بأنها لوحة مرسومة.
- أدوات التشكيل والرسم عديدة متنوعة، ولكل شاعر نصيب تتبجه له ثقافته وبراعته وموهبته.
- قصيدة أباييل نموذج غني بأدوات التشكيل الشعري، يتسم سياقها بأنه سهل ممتع، لغة، وتعبيرا وتصويرا.
- في القصيدة تبرز مهارة الشاعر في اختيار الألوان وتوظيفها إلى معان تخدم المعنى الرئيس للقصيدة، وتطريب الأصوات وتطويرها إلى دلالات كما في حرف الروي.
- تكثيف الرموز في سياقات متعددة جعلها - على كثرتها - تثري القصيدة، وتبتعد بها عن الغموض.
- ما زال للتاريخ حضوره البذي يثري النص الشعري، فيه دروس مستفادة، وإسقاطات حاضرة، وإشارات مباشرة وغير مباشرة للحاضر.
- السياق هو السمة الأبرز في تشكيل قصيدة أباييل، فهو يكشف معاني الرموز، ويوحي بدلالات الأصوات، وينمي في القارئ مهارة التوقع من خلال التوشيح والإرصاد.
- للشاعر البياسي مهارة في تشكيل القصيدة الشعرية، وعرضها في لوحات شعرية ناطقة، تمثلت في تمكنه من اللغة والتعبير والتصوير. وتوظيف التاريخ.

المصادر والمراجع

أدوات التشكيل الشعري في قصيدة أبابيل للشاعر محمد البياسي . د. علاء الدين محمد الأسطى

- 1- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، 1995 ميلادية.
- 2- الأسطى، علاء الدين، مقابلة مع الشاعر، الجمعة 19 - 12 - 2014م، عمان، الأردن.
- 3- الأسطى، علاء الدين، محاضرة النقد الحديث لطلاب السنة الرابعة بقسم اللغة العربية، بكلية الآداب قصر خيار، بجامعة المرقب، الثلاثاء، للعام الجامعي، 2015 _ 2016 ميلادية.
- 4- أنيس إبراهيم، الأصوات اللغوية،
- 5- البياسي محمد، يا شام: مجموعة شعرية، دار الرابطة للنشر والتوزيع، الشارقة، الطبعة الثانية، 2015 ميلادية.
- 6- سليمان ، فتح الله ، الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، بلا ط، 2004 ميلادية.
- 7- العاملي، بهاء الدين، الكشكول، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998 ميلادية.
- 8- عبد الحليم، مأمون، العروض والقافية بين التراث والتجديد، مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007 ميلادية.
- 9- عتيق، عبد العزيز، علم العروض والقافية، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، بلا تاريخ.
- 10- عساف، ساسين ، الصورة الفنية، دار مارون عبود، بيروت، الطبعة الأولى، 1985 ميلادية.
- 11- العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح: محمد البجاوي، و أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، الطبعة الأولى، 1986 ميلادية.
- 12- القيرواني، ابن رشيقي، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2009 ميلادية.
- 13- المجذوب، عبد الله، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، بلا دار، بلا بلد، بلا طبعة، بلا تاريخ.
- 14- مختار، أحمد، علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة السابعة، 2009 ميلادية.
- 15- نزار قباني، الرسم بالكلمات، ديوان شعر، بلا بيانات.